

## حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها<sup>(١)</sup>

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها واجناسهم — حضارتها وعمرانها .

### توطئة في بلاد الشام وسورية

يا بلادي وانت خير البلاد نلت خصباً في كل سهل ووادي  
فيك اغنت يد الطبيعة شعباً من قديم فنال كل المراد  
ساعدتها يد الصناعة دهرأ فأرثنا ثمار حسن اجتهاد  
ثم دالت بنا صروف اليبالي فكفنا كالجر تحت الرماد  
فاستعيدوا نجاحكم باجتهاد واتحاد لاجل خير البلاد

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام ( اسم<sup>(٢)</sup> ) ابن نوح ( راحة ) ف قيل في اسمه الشام لان السين والشين تبدلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر بشجره الذي كان مدينة صور ( صخر ) صهي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين افنتحوه فأروا الاشور بين يتولون شؤونه فنسبوه اليهم وقالوا ( اشورية ) ثم حذفت الهمزة وابدلت الشين سيناً ف قيل فيها ( سورية ) واول من ذكرها بهذا الاسم هيروdotus المؤرخ اليوناني وبقى الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام أكثر استعمالاً لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة اقسام ( اولها ) سورية الشمالية وهي تتبدى من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن

( ١ ) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف احد اعضاء مجمعنا

في ردهة التجمع مساء الجمعة في ٢٧ تشرين اول سنة ١٩٢٠ على نخبة العلماء والادباء وطلبة العلم . ( ٢ ) وضعنا معاني بعض الاسماء بين هلالين نعمة للفائدة .

امهات مدنها انطاكية وحلب وحماه و ( ثانيها ) سورية المتوسطة وهي التي اطلق عليها  
الكتيبة المتأخرون اسم سورية المحوفة تعريب كلمة Coelé - Syria والأولى ان  
يقال في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين  
اي الفرات ودجلة في العراق . وهذه تتدى من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور  
جنوباً ومن امهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبلبك وحمص . ومن امهاتها  
الساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور . و ( ثالثها ) سورية الجنوبية  
وهي ما بقي من سورية ويدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان ( المنخفض ) او  
فلسطين ( المتغربين ) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة واشهر اسمائها  
اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن  
مدنها الداخلية اورشليم او القدس الشريف وحررون اسية الخليل والناصرمة وطبرية  
ونابلس ومن الساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبع مائة كيلومتر  
وعرضها من الغرب الى الشرق نحو اربع مائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها  
٥٠٩ و ١٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة  
عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف فعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل  
مربع . واقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجباد  
ومن جسر المسيح يقال عرضاً الى طرسوس للبلاد المراد  
ومن يافا كذلك الى معان فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليبا نسبة الى آرام ( المرتفع ) وهو ابن سام بن  
نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكانه القداماء عند فتح اليونانيين فبقي  
اسمهم متداولاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية . والعرب جاروهم بذلك  
ثم غلبوا اسم الشام . ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك مرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية  
على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب ( رضه ) ودع البلاد بلغته اليونانية قائلماً  
( سوزة سورية ) اي كوني بسلام يا سورية . وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

## ٢

## دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظراني ( الحجري ) ولا تزال آثارها فيها وحولها . فلماذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سورية وانحسرت آثاراً ( ماعدا مدينة بعلبك ) واوفرها خصباً واغناها خيرات واكثرها متزهات واغزرها مياهاً . ولقد ذكرتها آثار اقصر الكرنك المحفورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات تل العارنة بعد قرنين كما ذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني ( جماعة ) من الكنتانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح<sup>(١)</sup> خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه وانتسابهم اليه ثم لانقلهم الى سفح ذلك الجبل الذي نسب اليهم وبقية هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرمون ( القمة العالية ) وعلوه — ٩٤٠٠ — قدم وهو يربط جوها بنداء البليل المحمول على اجنحة النسيم وحولها القوطتان الشرقية والغربية وهما من متزهات الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء واشجار غيباء ينساب فيها نهر بردي ( البارداو اللودي ) وينضم اليه نهر الفحيجة ( الينبوع ) فيدخل المدينة ويتوزع عليها انهاراً سبعة بهندسة بدعية فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان

( ١ ) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر بن سيد حمدية الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما مر

بلغتهم مجرى الذهب ( chrysorrhoeas ) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته .

والمدينة مسورة بسور عظيم منبع ذات ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري ( ١٨٣١ — ١٨٤٠ م ) فسلبه السكان مغانج المدينة عندما فتحها ودخل من بوابة الله مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل . وأمن الاهلين وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة ولها سور جوطا وخذق يرد عنها الفارات فجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنتها مائة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت أكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخرًا مختصرة مفيدة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات وصف تاريخ الشام ودمشق وعمرانها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تمحيص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخبط الباحث في تفسير الاعلام وبقي الاشكال غامضًا فحبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغنًا للمؤرخ يحقق فيه الآراء ويصحح النقول فيعتمد الآتون على اقواله . والله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا نفرق بين ما هو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن » . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من تحمل لكلمة اصهبان وجوهاً غريبة في اشتقاقها ( ١ : ٢٧٠ ) بما نصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصى وفر . قيل له : فالطفشيل . قال : لانه طفا وشال — اه »

فأريت في اول محاضرة انندبت لالقاءها على منبر هذه الردهة بعد استعادتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محصاً على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه الذرع بعض ما كان مستوراً بحجاب الاهمال في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على اني لم تعرض التحليل الاعلام الاعجمية في كلامي لغموض اشتقاقها عنا . تاركاً الاعلام العربية لاننا ندرکها بالبداهة . راجياً من لطفكم ايها الكرام الاغضاء عن المفوات . فليس ما تسمعونه الآن من الآراء الحديثة في التاريخ

الا. نبيها الى البحث والتنقيب للتحقيق والتمحيص ليكون تاريخنا كاملاً مبنيًا على الحقائق  
الراهنه والبراهين الدامغة . فلا تحملوه يارعاكم الله على غير حسن القصد والله حسي .

٣

### اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل  
الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد  
الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا الحال الآن اسماء هذه المدينة وهي  
كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في موسوعته ( صحح الاعشى ) المطبوعة حديثاً -  
دمشق وجلق وحكي في الروض العطار تسميتها جيرون والعدراء . . الخ

اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسمائها لانه اسم أب الذين احتلوا واخططوها  
من اللوديين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنتنا الى اليوم . ولا سيما  
عند العامة حتى انهم قلما يقولون ( دمشق ) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب  
الاسماء واسم أب الآباء الذين تدبروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام  
العرب وتعبير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم ( بالشام ) نادرة<sup>(١)</sup> فان بالشام اقداماً وأوصالا

وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عمماً ولا خلا

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .  
وقال صاحب مرصد الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد  
مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان البلاد  
الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الاماكن التي نزلوها .

ثانيها دمشق = لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه  
التسمية انها لودية او أرامية ( اي كلدانية او سريانية قديمة ) ذكرتها آثار الكرنك  
وكتابات تل العارنة باسم ( تماسكو ) باللغة الهيروغليفية ( اللغة المصرية المقدسة ) ومعنى

( ١ ) اي زالة وواقعة .

الكلمة المزهرة او المثمرة تسميه بغيوطها الخصبية . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم منهم ابو عبادة المجتري بقوله :

اما دمشق فقد ابدت محاسنها      وقد وفي لك مطربيا بما وعدا  
اذا أردت ملأت العين من بلد      مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة **Damascas** وعنهم نقل الافرنج تسميتهم للمدينة وصناعاتها كما سياتي :

واما قولنا (دمشق الشام) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة (دمشق الغرب او الاندلس) لان سكانها كانوا من طواري دمشق الذين ذهبوا اليها مع من ذهب الى المغرب فاختروها ساكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها ولجبل الثلج المطل عليها فكانت اشبه بمدينتهم الاصلية . ولكن ابن جبير الكنتاني الرحالة فرّق بين الدمشقين بقوله :

يا (دمشق الغرب) ها      تيك لقد زدت عليها  
تحتك الانهار تجري      وهي نصب إليها

وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيل لما حاصر عسكر يزيد بن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا      على خير حال كان جيش يكوئنا  
وانا على بابي (دمشقة) نرتي      وقدحان من بابي (دمشقة) حيننا

الثالث جلق = لقد غمض اشتقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف **Jinic** ومعناها امرأة وكان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر . فليل فيها (جنق) ثم بالابدال (جلق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) . وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك :

لله درُّ عصابة نادمتهم يوماً (بجلق) في الزمان الاول يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل واما البريص او البريص الذي ذكره حسان هنا فهو اما متزه او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة baradisos اي براذيسوس اليونانية ومعناها المتزه او الفردوس . وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط وهو موضع الخاسين الآن . ولعل اسم بردى من هذه الكلمة وقال في مرصد الاطلاع : ( جلق ) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس . ثم قال : ( جليقية ) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصاه من جهة الغرب . ( اه ) . وهذا دليل آخر على حمل الدمشقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبباً وحنيناً الى الوطن .

الرابع جيرون = اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلًا لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم . وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب الوفرة . ولا تزال آثار السور الذي كان يحدق به ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية . وحول الباب عمودان ضخمان يدلان على عمر السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الاعمدة لسير الناس والسوق بينها للمجلات والحيوانات . وحوله كتابات يونانية على يمين الداخل في موضعين<sup>(١)</sup> .

وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته (عتبته العليا) نقوش بديعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً :

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القميرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجامع من باب الوفرة (جيرون) ظهرت في الجدار الغربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الابن الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة وفي بيت الدردي على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدي الى البيت . وكذلك في بيت السمان في القمير به كتابة اخرى يونانية .

ومثلها الى شرقي الجامع عند باب البريد ثلاثة اعمدة عليها طنّف وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر (دمشق) بمشق اقلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلاً  
واجزر (بجيرون) ذبولك واختصص مغنى تآزر بالعلی وتسربلا  
وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب (جروند) بمعنى السراج وهو بعيد كما لا يخفى  
ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مراصد الاطلاع : جيرون سقيفة  
مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلجة .  
وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان (١٥)

قلت واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثرأ في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن  
انها تحسفت على المؤلف فالاولى ان تكون هي (جيرون) المسماة قرية اربع بل مدينة  
اربع وتعرف اليوم باسم (الخليل)

الخامس اسمها الأخر = سميت دمشق باسماء أخر كثيرة نشير اليها نمة للبحث  
فسماها يولييانوس الروماني (عين الشرق كله) لعمرانها . ومن اسمائها العربية (إرم  
ذات العباد) وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو لقبيلة لالمدينة والذي  
اراه ان العرب لما رأوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها (مدينة  
ارام ذات العباد) ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها (عاصمة أرام)  
و (أرام دمشق) تمبيزاً لها عن (أرام صوبة) في وادي سورية . و (مدينة العازر)  
وهو خادم ابرهيم الخليل المنسوب الى دمشق . و (بيت رامون) نسبة الى هيكلها الذي  
كان باسم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانه في ظاهر دمشق . و (حاضرة الروم)  
و (حصن الشام) و (بيت ملكهم) و (باب الكعبة) و (فسطاط المسلمين) و (العذراء)  
ولعابا نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيسةها القديمة المعروفة بالرميمة . او انها تعريب  
كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفاً . و (قاعدة وادي سورية) المعروفة بسورية  
الجوفة في اصطلاح . ورخيننا الآن . ومن القاها (القيحاه) لاتساعها و (الغناء)  
لاتفاف اشجارها الكثيفة و (جنة الارض) لكثرة حدائقها وغزاره مياها .  
وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كثير من الحقائق

الغامضة التي يتحلها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن اللغة الفينيقية (دمر) وهي تحريف ( دامور ) او ( تامور ) او ( تamar ) وهو عندهم الاله المحامي فكأنهم اتخذوا حصناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارهم الشهيرة . و ( بلاط ) تحريف بعل باليت . وفي جبل القلمون قرية فليطة وهي من هذا الاشتقاق .  
والاسماء الآرامية أكثر من غيرها مثل ( بيت لهيا ) اي بيت الآلهة . و ( المعرة ) بمعنى المغارة .

ومنها الحثية مثل ( الشاغور ) بمعنى الصغير . و ( قطننا ) تحريف ( كتنا ) وهو اسم الحثيين وكذلك ( الفوطه ) فانها تحريف ( الكتنه ) واليبوسية مثل ( يوس ) و ( كفريوس ) نسبة الى اليبوسيين من الكنعانيين . و ( جديدة الجرش ) نسبة الى الجر جاشيين منهم ايضاً . واليونانية مثل ( بلاس ) بمعنى قصر . و ( بيت اورانس ) اي بيت السماء وهي الآن اطلال خربة . و ( عين ثوما ) اي الحمة وهي العين الحارة المياه . و ( افتريس ) تحريف ( فاراتريس ) اي ضارب الاعداء ومبدهم وهو من اسماء المشتري . و ( الفيجه ) وهي تحريف ( بيهجه ) اليونانية بمعنى ينبوع . و ( مقرا ) من متزهاها اصلها يوفاني ( مكر ) بمعنى المستطيلة . و ( نهر ثورا ) اي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه ( ثورا ) أو نسبة الى تاج الملك ثوري<sup>(١)</sup>

والرومانية مثل جبل « القلمون » بمعنى المناخ اي جودة الهواء . و « بانياس » من بان اله الغابات وهو من اسماء انهارها اليوم .  
والعبرانية « المزة » وهي باسم حفيد عيسو ومعناه « الخوف » او هي يونانية بمعنى التلة او الربوة وقيل عربية تحريف « المتزّه »

والفارسية « جوبر » من جوبار بمعنى مسيل النهر الصغير .  
وذكر ابن عساكر كثيراً من اسماء القرى العربية مثل « صنعاء » وهي خربة الآن دون المزة مسماة باسم « صنعاء اليمن » العربية . ومثلها قرية « الحمير بين » الخربة وفيها مسجد كان مشهوراً وهذا من الأدلة على ان اليمنيين تديروها .

(١) هو زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك اخت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ  
« ١١٦١ م » وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها .